Muhannad Nasir Hussein AL-BERMANI ¹

**THE INTENTIONALLY USE OF PRONOUNS IN THE ARABIC
GRAMMAR**

<http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.3-3.30>

Research Article

Received:

30/12/2020

Accepted:

23/01/2021

Published:

01/03/2021

This article has been
scanned by iThenticat
No plagiarism detected

Copyright © Published
by Rimak Journal,
www.rimakjournal.com

Rimar Academy, Fatih,
Istanbul, 34093 Turkey
All rights reserved

Abstract:

The metaphor of the pronoun is the substitution of a pronoun with another pronoun that differs from it in connotation and in the Arabic position, such as the occurrence of the accusative pronoun subject to the raised pronoun or the accusative pronoun subject to the accusative pronoun, and so on, such as the saying of the one who said: "You passed by me" and it was better for him to say: "You passed by me." It is correct to say: "I honored him

I followed in this research tagged with (Intentionally borrowing the pronoun in Arabic grammar) A clear approach to explaining its issues, as I present the issue and clarify its forms and list the opinions of scholars about it and the evidence that back it up, then explain its relationship to the main topic, which is the metaphor of the conscience. I devoted the second topic to explaining the places of the metaphor of the conscience and its applications in Arabic, and then the conclusion in which I presented a number of results reached by the research, including: The metaphor of the conscience was mentioned in the Holy Qur'an, Qur'anic readings and hadiths in addition to its inclusion in Arabic poetry and the sayings and words of Arabs, then some Wills, the last of which is a list of the names of sources and references.

Key words: The Referential Use, The Attention, The Turning, The Courage of Arabic.

¹ Researcher, ministry of education, Iraq, assd63981@gmail.com, <https://orcid.org/0000-0001-7828-8081>

قصيدة استعارة الضمير في النحو العربي

مهند ناصر حسين البيرماني²

الملخص

استعارة الضمير هي إبدال ضمير بضمير آخر يغيّره في الدلالة وفي الموقع الأعرابي كوقوع الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع أو الضمير المجرور موضع الضمير المنصوب وغير ذلك كقول القائل: "مررت بإيادي" وكان الأفضل أن يقول: "مررت بي", ونحو قولك: "أكرمت إياه" والصواب أن تقول: "أكرمته". أتبع في هذا البحث الموسوم بـ (قصيدة استعارة الضمير في النحو العربي) منهجاً واضحاً في بيان مسأله إذ أقوم بعرض المسألة وتوضيح ما فيها من أشكال وإدراج آراء العلماء فيها والشواهد التي تعضدها ثم بيان علاقتها بالموضوع الرئيس وهو استعارة الضمير؛ وقد قسمت البحث على مبحثين أوردت في المبحث الأول مفهوم كل من استعارة الضمير والالتفات والفرق بينهما وفائدة استعارة الضمير؛ وخصصت المبحث الثاني لبيان مواضع استعارة الضمير وتطبيقاته في العربية؛ وبعدها الخاتمة التي عرضت فيها جملة من النتائج التي توصل إليها البحث منها: إن استعار الضمير قد وردت في القرآن الكريم والقراءات القرآنية والأحاديث النبوية علاوة على ورودها في الشعر العربي وأقوال العرب وكلامهم. الكلمات المفتاحية: استعارة الضمير؛ استعارة الضمير؛ الشعر العربي.

المقدمة:

لا شك أن الناظر في كتب النحو قديمها وحديثها يجد في طي صفحاتها عدداً غير قليل من الضمائر المتصلة والمنفصلة فضلاً عن اختلاف العلماء في بعض المسائل النحوية المتعلقة بها، والتي تذكر في ميدانهم النحوي، ونتيجة لكثرة تلك الضمائر نجد بعض الإرهاصات التي تشير إلى مسألة استعارة الضمير وهو مما لا نجد له عند علماء العربية القدماء والمحدثين حدوداً أو شرحاً مبسطاً يعني بهذه المسألة على الرغم من تنوع استعمال الضمائر في الكلام العربي عموماً وغزارة ورودها في كتب النحو خصوصاً؛ لذا يمكن عدها من الظواهر اللغوية؛ وهذا ما دعاني إلى اختيار هذا البحث الموسوم بـ (قصيدة استعارة الضمير في النحو العربي) والذي اتبعت فيه المنهج الوصفي في بيان مسأله وقد قسمته على مبحثين أوردت في المبحث الأول مفهوم كل من استعارة الضمير والالتفات والفرق بينهما، وخصصت المبحث الثاني لبيان مواضع استعارة الضمير وتطبيقاته في العربية. مستعيناً بجملة من الكتب المتنوعة؛ منها كتاب سيبويه (ت 180هـ) والمقتضب للمبرد (ت 285هـ) والخصائص لابن جني (ت 392هـ) والكشاف للزمخشري (ت 538هـ) والبحر المحيط لأبي حيان (ت 745هـ) والنحو الوافي لعباس حسن (ت 1398هـ) ومعاني النحو لفاضل السامرائي وغير ذلك. ومن الدراسات المقارنة، أهمية أسلوب الالتفات وأثره في القراءات القرآنية دراسة تحليلية د. ناجي حسين صالح و الالتفات نحويّاً عبدالله رضوان أنموذجاً د. مفلح عطا الله الفايز وآخرون.

المبحث الأول

مفهوماً استعارة الضمير والالتفات والفرق بينهما

إن مصطلح استعارة الضمير ليس بعيداً عن مصطلح الالتفات، إذ يمكن للدارس أن يلحظ وبكل سهولة ويسر أن كلا المصطلحين يتناول تنقل الضمير والعدول عن ضمير إلى ضمير مغاير، وهذه القرابة بين المصطلحين تدعو إلى ضرورة تبين معنى كل منهما والفرق بينهما من حيث الاختلاف والتشابه.

مفهوم استعارة الضمير

استعارة الضمير هي إبدال ضمير بضمير آخر يغيّره في الدلالة وفي الموقع الأعرابي كوقوع الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع أو الضمير المجرور موضع الضمير المنصوب وغير ذلك كقول القائل: "مررت بإيادي" وكان الأفضل أن يقول: "مررت بي", ونحو قولك: "أكرمت إياه" والصواب أن تقول: "أكرمته".

² الباحث، وزارة التربية، العراق، assd63981@gmail.com

ولعل القارئ أو السامع يرفض مثل هذه الأمثلة لأنها تخالف ما جاءت عليه قواعد النحو العربي؛ ولكن في الحقيقة أن هذه المسائل قد ذكرها النحويون وصححوها وقوع الاستعارة في الضمير؛ وقد وردت في أقوال العرب الفصحاء وفي شعرهم أمثلة كثيرة وأحاديث تبين ظاهرة استعارة الضمير عند العرب، وفي هذا الصدد قال سيبويه: "وزعم الخليل رحمه الله أنه سمع بعض العرب يقول: يا أنت؛ فزعم أنهم جعلوه موضع المفرد. وإن شئت قلت: يا فكان بمنزلة يا زيد" (1)، وقال أبو حيان الاندلسي: "فلاستعارة احوال الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع" (2)، وجاء في اتحاف الفضلاء: "أما استعارة ضمير النصب لضمير الرفع فسائغة" (3)، وقال الأستاذ عباس حسن في حديثه عن الضمائر المنفصلة المرفوعة: "وهذه الضمائر الاثنا عشر لا تكون بالأصالة إلا مرفوعة. فأما استعمالها غير مرفوعة؛ فإنما هو بالتيابة عن ضمير الجر أو النصب" (4). وهناك أقوال وآراء كثير للعلماء في استعارة الضمير سادرجها في متن هذا البحث لأبين أن استعارة الضمير هي من الظواهر اللغوية في النحو العربي.

مفهوم الالتفات: يقصد بالالتفات: "هو انصراف المتكلم عن مخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى مخاطبة وما يشبه ذلك" (5)، أو هو العدول من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى المتكلم (6)، وهو ما اطلق عليه ابن جني بـ (شجاعة العربية) (7) كقوله تعالى: ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة يس آية 22]، ففي الآية المباركة الالتفات من المتكلم في قوله "وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي" إلى المخاطب في قوله "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"، ولو كان الكلام يجري على نسق واحد لقال: "واليه ارجع" (8)، وكقوله تعالى: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة الزمر آية 53]، فقد عبر عن المعنى أولاً بطريق التكلم: فقال: "يا عبادي" ثم التفت فعبّر عنه بطريق الغيبة فقال: "من رحمة الله"، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: "من رحمتي" (9).

الفرق بين الالتفات واستعارة الضمير:

كثير من العلماء والباحثين لم يفرّقوا بين استعارة الضمير والالتفات، لذلك نجد استعارة الضمير تحت مصطلح الالتفات وتندرج في موضوعاته ومسائله، في حين أن بعضهم الآخر ميّز بين الالتفات واستعارة الضمير ومنهم أبو حيان عند تعرضه لقراءة الحسن البصري "إياك يُعَبَّد" قال: "وتوجيهها أن فيها استعارة والتفاتاً" (10)، فأبو حيان قد فرّق بين المصطلحين بجعلهما متقابلين؛ أما أوجه الفرق والتشابه بينهما يمكن في الآتي:

* إن مفهوم استعارة الضمير: هو ابدال ضمير بضمير آخر يغيّره في الدلالة وفي الموقع الأعرابي كوقوع الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع أو الضمير المجزور موضع الضمير المنصوب وغير ذلك. بينما الالتفات: فهو الانتقال من ضمير إلى ضمير آخر يغيّره كالانتقال من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب، أو من ضمير المفرد إلى ضمير الجمع وهكذا؛ فلاستعارة معناها هنا ابدال ضمير بضمير، والالتفات معناه الانتقال أو العدول أو التحول من ضمير إلى ضمير آخر.

* استعارة الضمير تكون في كلمة واحدة، بينما الالتفات فيكون في كلمتين أو في جملتين أو أكثر بحسب السياق الذي يرد فيه.

* أما وجه الشبه بينهما فإن كلا المصطلحين يندرج تحتها انتقال الضمير أو تغييره، يقول العلوي (ت 745هـ) في حديثه عن الالتفات: "وقد يلقب بشجاعة العربية، والسبب في تلقيبه بذلك، هو أن الشجاعة هي الإقدام، والرجل إذا كان شجاعاً فإنه يرد الموارد الصعبة، ويقتحم الورط العظيمة حيث لا يردّها غيره، ولا يقتحمها سواه، ولا شك أن الالتفات مخصوص بهذه اللغة العربية دون غيرها" (11)، فإذا كان الالتفات من شجاعة العربية؛ لأنّ العربي يقتحم ويدخل الأساليب الصعبة ولا يهاب الصعوبات لتمكنه من اللغة العربية، فكذلك كانت استعارة الضمير، ويبيّن الدكتور محمد أبو موسى أن الالتفات هو من شجاعة العربية فيقول: "والذي نراه أن الشجاعة هنا إقدام على أنماط من التعبير مخالفة لما يقتضيه الأصل؛ لأنها تعبير بأسلوب الخطاب في سياق الغيبة، وذكر الغيبة في سياق الخطاب وهكذا، والمعتمد عليه في ذلك سياق الكلام وشفافية الدلالة. وهذا وإن تأملت ضرباً من الشجاعة واقتحام سبيل غير السبيل المألوف، وتفسيرنا هذا لشجاعة العربية هو ما يتلاءم مع ما ذكره ابن جني في باب سماه (شجاعة العربية)" (12)، فكان المتكلم يتحدّى النظم النحوية ويأتي بالالتفات مخالفاً للأصل وكانت شجاعته باقتحام سبيل غير السبيل المألوف، فكذلك كان المتكلم في استعارة الضمير يسلك سبيلاً غير السبيل المألوف ويأتي بالضمير على غير الأصل كأنه يتحدّى الأعراف والقواعد النحوية، وهذا هو وجه الشبه بينهما.

فائدة استعارة الضمير

لما كانت استعارة الضمير من قصدية المتكلم فلا بدّ من فائدة يرجوها هذا المتكلم، وللشبه بين استعارة الضمير والالتفات يمكن أن تندرج فوائد استعارة الضمير ضمن فائدة الالتفات ومن هذه الفوائد هي:

1. تنشيط ذهن السامع والابتعاد عن الملل، قال الزمخشري: "الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد" (13)، وقال الزركشي (ت 794هـ) فيما هذا

سبيله: "هُوَ ثَقُلَ الْكَلَامُ مِنْ أَسْلُوبٍ إِلَى أَسْلُوبٍ آخَرَ تَطَرُّبَةً وَاسْتِدْرَارًا لِلْسَّامِعِ وَتَجْدِيدًا لِنَشَاطِهِ وَصَيَانَةً لِحَاطِرِهِ مِنَ الْمَلِكِ وَالضَّجَرِ بِدَوَامِ الْأَسْلُوبِ الْوَاحِدِ عَلَى سَمْعِهِ" (14)، وقال أبو العتاهية (15): [من الطويل]
لَا يُضِلُّجُ النَّفْسَ إِنْ كَانَتْ مُصَرَّفَةً إِلَّا التَّنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

2. الاتساع في اللغة، فالمتكلم يعدل من ضمير إلى آخر بقصد الاتساع كما جاز له العدول من جمع إلى آخر أو من أسلوب إلى آخر كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [سورة البقرة آية 228]، فهنا خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: وليتربص المطلقات، فانتقل الكلام من أسلوب إلى آخر، وقد أضاف الثلاثة إلى قروء وهي جمع للكثرة ولم يضيفها إلى الأقراء التي هي جمع القلة، فعدل من القلة إلى الكثرة وهذا من باب الاتساع في اللغة (16).
3. ولا ننس الغرض البلاغي الذي يعد نمط من الافادة وضرب من ضروب الإيجاز والبيان، فلو أن المتكلم ذكر كلامه من دون حذف أو أو تقديم وتأخير أو عدول أو استعارة، لفسد علينا متعة الانطلاق والركب وراء الدلالات الهاربة والمنفلتة.

المبحث الثاني

مواضع استعارة الضمير وتطبيقاته في العربية أولاً: وقوع ضمير الرفع موقع ضمير النصب

وهذا ما نجده في المنادى إذ إن المنادى إما أن يكون منصوباً كما في "يا رجلاً" أو "يا رجل العلم" أو مبنياً في محل نصب كما في "يا زيد" فإذا ابدل الاسم الظاهر أو المنادى المفرد بضمير فلا بد أن يكون ضمير نصب فتقول: "يا إياك"، ولكن العرب إذا استعملت الضمير في النداء استعملته على وجهين: أحدهما أن يأتوا به ضميراً من ضمائر النصب فيقولوا "يا إياك" والثاني أن يأتوا به ضميراً من ضمائر الرفع فيقولوا "يا أنت" فيستعيرون ضمير الرفع للنصب، قال سيبويه: "وزعم الخليل رحمه الله أنه سمع بعض العرب يقول: يا أنت، فزعم أنهم جعلوه موضع المفرد، وإن شئت قلت: يا فكان بمنزلة يا زيد، ثم تقول: إياك، أي إياك أعني" (17)، كما في قول سالم بن دارة (18): [من الرجز]

يا مَرِّ يا ابن واقع يا أنت أنت الذي طلقت عام جعتا

ففي البيت الشعري يتضح وقوع ضمير الرفع موقع ضمير النصب وهذا لا يتوافق مع النظم النحوية عند بعض العلماء لذلك نجدهم يختلفون في إعراب (أنتا) على حسب مذاهبهم ولهم فيها آراء وتخريجات أهمها:

1. (أنتا) منادى مبني على ضم مقدر على آخره، منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة البناء الأصلي، والألف للإطلاق وهو في محل نصب (19)، وهذا الرأي يدل على أن بعض العلماء يجوز استعارة الضمير وأن بعض العرب قد جعل بعض الضمائر نائباً عن غيرها.

2. بعضهم جعل (يا) للتنبيه و(أنتا) مبتدأ و(أنت) الثانية توكيداً للأولى (20)، وعلى هذا الرأي لا يوجد شاهد في البيت الشعري حينئذٍ.

3. بعضهم عدّه من الشواذ؛ لأنّ الموضوع موضع نصب و(أنت) ضمير رفع فحقه أن لا يجوز كما لا يجوز في إياك والأسد: أنت والأسد، أما قولك: "يا إياك" فجار على القياس؛ لأنّ المنادى مفعول محذوف العامل وما كان كذلك وجيء به ضميراً وجب أن يكون أحد الضمائر الموضوعة للنصب (21).

4. ألا ينادى الضمير مطلقاً سواء أكان ضمير نصب أم ضمير رفع، وفي هذا الشأن قال ابن عصفور (ت 669هـ): "والأسماء كلها يجوز نداؤها إلا المضمرات، والأسماء المعرفة بالألف واللام... وقد ينادى المضمّر المخاطب في نادر كلام أو ضرورة شعر" (22).

5. هذه المسألة جعلت بعض العلماء يذهبون إلى أنّ الاسم المنادى المعروف المفرد معرب مرفوع (23)، وبهذا يجوز أن يأتي ضمير الرفع منادى، ولكن هنا تأتي مشكلة أخرى وهي أنّه لا يجوز أن يقع ضمير النصب منادى إلا من باب استعارة الضمير فتكون المسألة مقلوبة وضمير النصب هو الضمير المستعار للرفع.

وما أراه مناسباً للتخلص من كل هذه التناقضات والتخريجات المختلفة هو جواز استعارة الضمير، إذ يمكن أن يأتي ضمير الرفع موضع ضمير النصب ولا إشكال فيه.

وللتعامل مع هذه المسألة أقول: إنّ سبب ورود الضمير "أنت" بدل "إياك" مع أداة النداء هو من حيث المعنى، فالضمير إياك فيه معنى التحذير؛ لذلك يستعمل اسم فعل بمعنى احذر كقولك: "إياك والأسد" أي اتق نفسك أن تتعرض للأسد من أن يهلكك (24). وأيضاً قد يكون فيه معنى الاختصاص، وبما أنّ النداء هو اختصاص وإياك اختصاص، فاستغنى عن الضمير لفائدة النداء الذي لا يمكن الاستغناء عنه. واستُبدِلَ بالضمير أنت الذي فيه معنى التنبيه مناسبةً للمعنى الذي يقصده المتكلم وهو النداء، فقصدية المتكلم هي التي جعلته يفضل الضمير أنت في النداء في بعض الأحيان.

ومن وقوع ضمير الرفع موقع ضمير النصب قولك: "ظننته هو القائم" أو "ظننتك أنت القائم"، أو: "إنك أنت القائم" إذ وقع الضمير المنفصل توكيداً للضمير المتصل الذي هو موقعه النصب، وهذا كله جائز وقد ورد منه الكثير في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [سورة الكهف آية 39]، وقال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾

[سورة الدخان آية 49], وقال تعالى: ﴿لَا عَلَّمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سورة البقرة آية 32], إذ يجوز أن يأتي الضمير المنفصل المرفوع توكيداً للضمير المتصل المنصوب وحتى المجرور, قال سيبويه في حديثه عن الضمائر: "اعلم أن هذه الحروف كلها تكون وصفاً للمجرور والمرفوع والمنصوب للمضمرين, وذلك قولك: مررت بك أنت, ورأيتك أنت, وانطلقت أنت" (25), وما قصده سيبويه بـ(وصفاً) أي: توكيداً, وهنا ناب ضمير الرفع عن ضمير النصب, وضمير الجر في التوكيد (26), وهذا من استعارة الضمير.

ومن استعارة ضمير الرفع لموضع النصب قول لبيد بن ربيعة العامري (27): [من الطويل]

فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل

ف(أنت) ليس مبتدأ؛ لأن أكثر النحويين لا يجيزون الرفع بالابتداء بعد أداة الشرط, وأجازه سيبويه. ولا مرفوع بفعل محذوف يفسره ما بعده وهو قوله: "لم ينفعك"; لأنه يلزم من ذلك تعدي فعل الضمير المرفوع إلى ضميره المتصل المنصوب, إذ يصير التقدير: فإن لم ينفعك, وأجاز السهيلي رفعه بفعل محذوف يفسره ما بعده من جهة المعنى لا من جهة اللفظ, والتقدير: فإن ضللت. فلم يبق إلا أن يكون (أنت) في موضع نصب; لأن أصل الكلام "فإن إياك لم ينفعك علمك", وهو مما وضع فيه الضمير المرفوع موضع الضمير المنصوب, كما وضعوا المنصوب موضع المرفوع (28).

ثانياً: وقوع الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع

مثلاً يقع الضمير المرفوع موقع الضمير المنصوب كذلك العكس فيأتي الضمير المنصوب في محل رفع, وهذا ما نجده في الاستثناء المفرغ في مثل قولك: "ما أكرمني إلا إياك", فالضمير المنفصل هو ضمير نصب ولكن أتى في محل رفع فاعل, جاء في كلام العرب "لم يضربني إلا إياه" (29), وعن الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "إِذَا تَوَضَّأَ الرَّجُلُ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ لَا يَنْهَرُهُ إِلَّا إِيَّاهَا, لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا" (30), ولو جرى الكلام على الأصل لكان الكلام "لم يضربني إلا هو" و "لا ينهزه إلا هي", إلا أنه خرج من باب استعارة الضمير.

وأما سبب مجي ضمير النصب هنا مكان ضمير الرفع على حسب ما أعتقده أن إياك أو إياه فيه معنى الاختصاص, قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة آية 5], أي نخصك بالعبادة دون غيرك (31), فالاختصاص هنا ليس في تقديم المفعول به فقط بل باستعمال الضمير إياك الذي فيه معنى الاختصاص, وهذا ما يدعو المتكلم في بعض الاستثناء المفرغ إلى استعمال الضمير "إيا" وإن كان في غير محله; لأن معنى الاختصاص يتوافق مع سياق الاستثناء المفرغ, وقصدية المتكلم جعلته ينحو هذا المنحى ويستعمل ما يتوافق وسياق الحال.

وهذا الحديث النبوي يذكرني بالمسألة الزنبورية وهي حادثة معروفة ذكرتها أكثر كتب الخلاف النحوي فضلاً عن كتب التاريخ والنحو والطبقات وغيرها, وهي تبين خلاف الكسائي مع سيبويه في مسألة, وهي "كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي, أو فإذا هو إياها" وكان الكسائي يرى الوجهين صواباً, وسيبويه لا يرى إلا وجهاً واحداً وهو الرفع, وعند تحكيم الأعراب انتصر الأعراب إلى الكسائي (32).

وعلى الرغم من أن علماء النحو والباحثين انقسموا على أقسام ما بين مناصر لسيبويه أو مبرر للكسائي أو منصف لهما إلا أنه ليس من المهم أن نبين من هو الغالب, وإنما المهم أن نوضح ارتباط هذه المسألة باستعارة الضمير, فهناك عدد من التخريجات التي ذكرها النحويون تبين جواز النصب, ومن هذه التخريجات في جواز النصب "فإذا هو إياها" هو من باب استعارة الضمير (33), فهنا يجوز استعارة ضمير النصب مكان ضمير الرفع, ولكن هذه الاستعارة لا تخرج الكلام عن الأصل وهو الرفع, فاستعارة الضمير على الرغم من صحتها إلا أنها تكون في حالات قليلة أو نادرة في بعض الأحيان ومرتبطة بطبيعة المتكلم ومدى إرادته للمعنى الذي يقصده.

والذي يبدو لي هو أن سيبويه نظر إلى المسألة من حيث الأصل والكسائي نظر إليها من حيث القياس والسماع, فالكسائي يرى أن هناك وجه آخر وهو النصب وهذا الوجه جائز في العربية و وارد عن طريق القياس والسماع, وليس من المهم أن يكون هذا الوجه هو قليل أو نادر أو يخضع لقصدية المتكلم أو رغبته في إبراز ملكته اللغوية, على حين رأى سيبويه أنه ليس من المنصف المساواة بين وجه الرفع وهو الوجه المطرد في النحو العربي وقد ورد منه في القرآن الكريم, ووجه النصب وهو الوجه الذي يذكر في حالات معينة أو نادرة.

ومن أمثلة وقوع الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع ما جاء في قراءة الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة آية 5], فقد قرأ الحسن البصري "إِيَّاكَ يُعْبَدُ" بِبِنَائِهِ لِلْمَفْعُولِ الْغَائِبِ, ف"إِيَّاكَ" ضمير نصب وموقعه نائب فاعل, ولو جرت القراءة على النظم النحوية لكان الأولى أن يقرأ "هو يُعْبَدُ" أو "أنت تعبد" فاستعار ضمير النصب لموضع الرفع, وقد جَوَّزَ هذه القراءة ابن الجوزي (ت 597هـ) أيضاً فقال: "والعرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب, ومن الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَئِينَ بِهِمْ﴾ [سورة يونس آية 22], وقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً" [سورة الإنسان آية 22, 21], وقال لبيد (34): [من البسيط]

باتت تشكى إلي النفس مجهشة وقد حملتك سبعا بعد سبعينا" (35)

ويبدو لي أنّ ابن الجوزي لم يفرق بين استعارة الضمير والالتفات فالشواهد القرآنية التي ذكرها فيها التفات وفي قراءة الحسن البصري استعارة ضمير، أمّا الالتفات فموجود في الأصل في قراءة الحسن وفي قراءة الجمهور؛ ولذلك أشكل أبو حيان على هذه القراءة؛ إذ قال: "وهذه القراءة مشككة؛ لأنّ إِيَّاكَ ضمير نصب ولا ناصب له، وتوجيهها أنّ فيها استعارة والتفاتاً، فالاستعارة إحلال الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع، فكأنّه قال: أنت، ثمّ التفت فأخبر عنه إخبار الغائب؛ لما كان "إِيَّاكَ" هو الغائب من حيث المعنى فقال: يعبد، فكأنّه قيل: هو يعبد؛ أي: ربّ العالمين الموصوف بما ذكر يعبد، وغرابة هذا الالتفات كونه في جملة واحدة" (36)، ورد بهاء الدين السبكي (ت 773 هـ) على أبي حيان ومن سبقه بأنّ قراءة الحسن والشواهد الشعرية من الالتفات فقال: "وشيخنا أبو حيان توهّم أنّ ذلك من الالتفات لأنّه لم يحقق معنى الالتفات وظن أنّه أمر لفظي، وكذلك ظن أنّ منّه قراءة من قرأ "إِيَّاكَ يعبد" بالياء مضمومة في يعبد، وليس منه (37)، فصحيح أنّ الالتفات هو الانتقال من ضمير إلى ضمير آخر يغيّره كالانتقال من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب، لكن بشرط أن يصح وقوع الضمير في هذا الموضع، وفي قراءة الحسن البصري لا يصح وقوع الضمير المنصوب موضع الضمير المرفوع إلاّ أنّه جائز من باب استعارة الضمير.

ووصف السمين الحلبي قراءة الحسن بالشاذة؛ لأنّه كان من حقّ القارئ أن يقرأ: "إِيَّاكَ تُعْبَدُ" بالخطاب، فيكون وجه الالتفات مقبول، ولكنّه التفت من الخطاب في "إِيَّاكَ" إلى الغيبة في "تُعْبَدُ" وهذا الالتفات غريب؛ لكونه في جملة واحدة (38).

وفي ضوء التأمل في آراء العلماء يتبيّن أنّ بعضهم لم يفرّق بين الالتفات واستعارة الضمير؛ لذلك نجدهم قد شنوا هجوماً على أبي حيان عندما ذكر أنّ فيها استعارة والتفات؛ لأنّهم جعلوا استعارة الضمير نوع من الالتفات، وقد تبين لنا أنّه خلاف ذلك.

كما يتبين ورود استعارة الضمير في القراءات القرآنية التي تعد مصدراً مهماً من مصادر النحو العربي زيادة على ورودها في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف وفي كلام العرب، وهذا دليل على صحة ومقبولية استعارة الضمير عند العرب. ومن إنابة ضمير النصب عن ضمير الرفع في قولك: "عساك" و "عساني"، قال رؤية بن العجاج (39): [من ارجز]

تقول بنتي قد أنى أناكا يا أبتا علك أو عساكا

فمن المعروف أنّ (عسى) فعل ماضي ناقص يرتفع بعدها الاسم وإن كان ضميراً، وينتصب بعدها الخبر، إلاّ أنّه قد ورد هنا الاسم ضمير نصب، ويرى الأخفش أنّ عسى على ما كانت عليه من رفع الاسم، ونصب الخبر، إلاّ أنّ ضمير النصب ناب عن ضمير الرفع كما ناب عنه في قول الشاعر (40): [من الرجز]

يا ابن الزبير طال ما عصيكا وطال ما عثيتنا إليك

وكما ناب ضمير الرفع عن ضمير النصب، وضمير الجر في التوكيد نحو "رايتك أنت" و "مررت بك أنت"، وفي قول بعضهم "ما أنا كانت" و "ما أنا كإياك" (41).

والذي أراه أن القصد من استعارة ضمير النصب مكان ضمير الرفع في عسى هو للسهولة؛ ذلك لأنّ كلمة "عساك" و "عساني" وعساه" متألّفة من مقطعين صوتيين وهي أسهل في النطق من "عسى أنت وعسى أنا وعسى هو"، المتألّفة من ثلاثة مقاطع صوتية، ومن الطبيعي أن تكون أصعب في النطق أو أثقل على اللسان، وبهذه الحالة يفضل المتكلم استعارة الضمير بقصد التخفيف والسهولة، وهذا الكلام ينطبق على "لولاي ولولاك".

والحال نفسها في بيت رؤية فقد استعير ضمير النصب (الكاف) في عصيكا بدل من (التاء) والأصل عصيت، وفيه استعير ضمير عن ضمير آخر (42)، وهذه الاستعارة سببها صوتي أيضاً وقد بين ابن جني ذلك فقال: "أبدل الكاف من التاء، لأنّها أختها في الهمس" (43)، أما أبو حيان فقد ذكر أن ذلك من باب البدل (44)، وأحسب أن الذي يقصده أبو حيان بالبدل هو استعارة الضمير إلاّ أنّه لم يصرّح به.

ثالثاً: مواضع أخرى لاستعارة الضمير

ومن هذه المواضع وقوع ضمير الجر موضع ضمير الرفع كما في (لولاي)، التي تفيد الشرط، إذ إنّ الاسم الذي يأتي بعدها يكون مرفوعاً على الابتداء (45) نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [سورة النور آية 21]، (ففضل) مبتدأ مرفوع والخبر محذوف وجوباً تقديره موجود أو كائن أو متحقق أو حاصل. وكذلك إذا ولي لولا ضمير فحقه أن يكون ضمير رفع نحو قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة سبأ آية 31]، فأنتم: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ وخبره محذوف وجوباً (46).

وقد يتصل بلولا ضمير جر فتقول: "لولاك أو لولاه أو لولاي"، وهذا مذهب سيويه الذي يقول: وذلك لولاك ولولاي، إذا أضمرت الاسم فيه جرّ، وإذا أظهرت رُفع، ولو جاءت علامة الإضمار على القياس لقلت لولا أنت، كما قال سبجانه: "لولا أنتم لكنّا مؤمنين"؛ ولكنهم جعلوه مضمراً مجروراً.

والدليل على ذلك أن الياء والكاف لا تكونان علامة مضمّر مرفوع (47)، كما في قول يزيد بن الحكم (48): [من الطويل]

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوي

وزهد أكثر النحويين إلى أن الباء والكاف في "لولاي، ولولاك" في موضع رفع، فاستعير للرفع لفظ الجر، كما استعير للرفع لفظ النصب في عسى(49).

ورأي المبرد أنه لا يجوز أن يقال "لولاي، ولولاك" ويجب أن يقال "لولا أنا، ولولا أنت" كما في النص القرآني(50). وخلاف النحويين في هذه المسألة يبين مدى تمسك علماء النحو القدماء بآرائهم التي توافق مذاهبهم النحوية سواء أسديد كان هذا الرأي أم غير سديد، فالمسألة واضحة ولا تحتاج إلى تزمت أو عناد، فالاسم الذي يأتي بعد لولا يكون مرفوعاً بالابتداء، أظاهراً كان أم ضميراً، كل ما في الأمر أن المتكلم استعار ضمير الجر المتصل بدلاً من ضمير الرفع المنفصل بقصد السهولة في نطق وهو أخف في الكلام من الضمير المنفصل.

وقد يستعار ضمير الرفع للجر كما في قولهم: "ما أنا كأنت ولا أنت كأنا" وأنت: من ضمائر الرفع، وهو ههنا في موضع خفض وهذا وارد في كلام العرب من استعارة ضمير لموقع ضمير آخر (51).

ولو أبقيتها على الأصل لقلت: "ما أنا كك ولا أنت كي"، وقد ورد هذا الكلام عند العرب في قول الحسن: "أنا كك وأنت كي" (52)، وكقول سويد بن عمير الهذلي(53): [من الخفيف]

وإذا الحرب شمرت لم تكن كي حيث تدعو الكماة فيها نزال

وكقول أبي محمد اليزيدي النحوي(54): [من المتقارب]

شكوتم إلينا مجانينكم ونشكوا إليكم مجانيننا

فلولا المعافاة كنا كهـم ولولا البلاء لكنا كنا

وقول الآخر: (55)

لا تلمي فإنني كك فيها إننا في الملام مشتركان

وأحسب السبب قصد المتكلم من الاستعارة هنا أن الضمير المستعار أبين في أداء الوظيفة الدلالية الملقاة إليه، فالمعنى يكون واضحاً في قولنا: "ما أنا كأنت"، وعكسه في قولنا: "ما أنا كك"، فعلى الرغم من صحة وقوع الضمير في الجملة الثانية إلا أن بعض النحويين عدّوه من الشواذ(56)، فدلالته شبه مبهمة إذ يحس المتكلم أن فيه نوع من الغرابة، التي تجعله غير قادر على إيصال ما يقصده، وهذا أكثر ما ينفّر منه العربي وهو الابتعاد عن الغرابة عند التحدث.

ومن أنواع الاستعارات الأخرى استعارة الضمير المنفصل بدلاً عن الضمير المتصل كقولك: "ضرب أنت" بدل من ضربت و"نقتل إيانا" بدل نقتلنا، قال ذو الإصبع العدواني(57): [من الهزج]

كأننا يوم قرى! نما نقتل إيانا

حيث جاء الضمير المنفصل في المكان الذي يكون فيه الضمير المتصل، وإنما جاز ذلك على طريق الاستعارة في الضمائر(58)، وقد يكون الشاعر استعمل الاستعارة هنا بقصد الوزن العروضي للبيت الشعري، ولكن المهم هو أنه استعار ضمير بدل آخر.

ومن خلال ما ذكر مسبقاً يتبين لنا أن استعارة الضمير تكون في جميع المواقع الأعرابية للضمائر فتكون في الرفع والنصب والجر كلاً بحسب دلالة المتكلم القصديّة.

الخاتمة

1. استعارة الضمير من الظواهر النحوية التي وردت في النحو العربي في كثير من المسائل النحوية، وأشار إليها كثير من النحويين والعلماء بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

2. وردت استعارة الضمير في القرآن الكريم والقراءات القرآنية والأحاديث النبوية علاوة على ورودها في الشعر العربي وأقوال العرب وكلامهم.

3. يلجأ المتكلم إلى استعارة الضمير بقصد بيان ملكته اللغوية في إبدال الضمائر ليسلك بها سبيلاً غير السبيل المألوف ويأتي بالضمير على غير الأصل كأنه يتحدّى الأعراف والقواعد النحوية؛ لذلك تعد نوع من شجاعة العربية.

4. لاستعارة الضمير أسباب عديدة منها:

* أسباب تتعلق بخاصية الضمير نفسه في إفادة المعنى الذي يقصده المتكلم.

* أسباب صوتية تتمثل في سهولة نطق بعض الضمائر المتصلة بالكلمات، التي تكون أسهل في نطقها من الكلمات المنطوقة من دون استعارة، والتي يلجأ إليها المتكلم بقصد الخفة.

وقد تكون الاستعارة في بعض الضمائر أو الأصوات المتقاربة في الصفات.

5. من فوائد استعارة الضمير تنشيط ذهن السامع والابتعاد عن الملل، والاتساع في اللغة، زيادةً على الفوائد البلاغية.

6. إنَّ اختلاف النحويين القدماء في بيان بعض المسائل النحوية تدل على مدى انحياز هؤلاء العلماء إلى مذاهبهم النحوية التي يدعون إليها من غير الاهتمام بنسبة مقبولية هذا الرأي من عدمه، مما صعب كثيراً على الدارسين بيان الوجه الصحيح.
7. لم يهتم العلماء القدامى بدور المتكلم وأثره في تركيب الجملة العربية وما يهدف إليه المتكلم ويقصده من كلام أو تعبير وما يترتب عليه من تغير في السياق العام.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أهمية أسلوب الالتفات وأثره في القراءات القرآنية دراسة تحليلية، د. ناجي حسين صالح، مجلة البرهان للدراسات القرآنية، كلية العلوم الإنسانية ماليزيا، المجلد 3، العدد 2، 2019 م.
- البديع في البديع، لابن معتر (ت 296هـ)، الطبعة الأولى، دار الجيل، 1410 هـ - 1990 م.
- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ)، تحقيق: محمد علي النجّار، المكتبة العلمية، د.ت.
- ديوان ذي الاصبع العدواني، جمعه وحققه عبد الوهاب محمد علي العدواني و محمد نائف الدليمي، وخط أشعاره يوسف ذنون، الطبعة الأولى، مطبعة الجمهور، الموصل، 1393 هـ، 1973 م.
- سنن أبي داود، لأبي داود السجستاني (ت 275هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (د.ط)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ت).
- شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، لمحمد بن محمد حسن شُرّاب، الطبعة: الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1427 هـ - 2007 م.
- مسند أبي داود الطيالسي، لأبي داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (ت 204هـ) تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، الطبعة: الأولى، دار هجر، مصر، 1419 هـ - 1999 م.
- المعجم المفصل في شواهد العربية، د. إميل بديع يعقوب، الطبعة: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417 هـ - 1996 م.

الهوامش

- (1) الكتاب 1/ 291 .
- (2) البحر المحيط في التفسير 41/1.
- (3) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر 136 .
- (4) النحو الوافي 1/ 227 .
- (5) البديع في البديع 153.
- (6) ينظر: أهمية أسلوب الالتفات وأثره في القراءات القرآنية دراسة تحليلية 94 .
- (7) ينظر: الخصائص 362/2.
- (8) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة 87/2.
- (9) ينظر: الالتفات نحويّاً عبدالله رضوان أنموذجاً 277.
- (10) البحر المحيط في التفسير 43/1.
- (11) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 71/2.
- (12) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري 173.
- (13) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل 14/1.
- (14) البرهان في علوم القرآن 314/3.

- (15) ديوانه 223 .
- (16) ينظر: التبيان في إعراب القرآن 180/1 .
- (17) الكتاب 291/1.
- (18) وفيه أكثر من رواية منها يا أبحر بن أبحر يا أنتا، و يا أقرع بن حابس يا أنتا، ينظر: المعجم المفصل في شواهد العربية 154/9 ، شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية 208/1 .
- (19) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك 8/4.
- (20) في التحليل اللغوي: 154 .
- (21) ينظر: تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد 3537/7 .
- (22) المقرب 176/1.
- (23) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين 264/1.
- (24) ينظر: المفصل في صنعة الإعراب 73.
- (25) الكتاب 385/3.
- (26) ينظر: شرح الكافية الشافية 78/1.
- (27) ديوانه 131.
- (28) ينظر: ارتشاف الضرب من لسان العرب 1871/4، وتمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد 1687/4 .
- (29) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك 369/1 ، وينظر: التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل 224/2.
- (30) سنن الترمذي: 499/2 ، و ينظر: مسند أبي داود: 165/4.
- (31) ينظر: معاني النحو 88/2.
- (32) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين: 577، 576/2.
- (33) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب 125.
- (34) ديوانه 352 .
- (35) زاد المسير في علم التفسير 19.
- (36) البحر المحيط في التفسير 43/1.
- (37) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح 280/1.
- (38) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 58/1 ، و اللباب في علوم الكتاب 199/1.
- (39) ديوانه 181.
- (40) المعجم المفصل في شواهد العربية 264/11.
- (41) شرح الكافية الشافية 78/1 .
- (42) ينظر: شرح الكافية الشافية 78/1، و تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد 1279/3.
- (43) سر صناعة الإعراب 290/1.
- (44) ينظر: التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل 360/4.
- (45) ينظر: المقتضب 76/3.
- (46) ينظر: أدوات الإعراب 222-220.
- (47) الكتاب 373/2.
- (48) المعجم المفصل في شواهد العربية 298/8.
- (49) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين 564/2.
- (50) ينظر: نفسه .
- (51) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب 361.
- (52) ينظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك 745/2.
- (53) شرح أشعار الهذليين 812 .

⁽⁵⁴⁾المعجم المفصل في شواهد العربية 42/8.

⁽⁵⁵⁾ لم اعثر على قائله , ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك 15/3 و خزانة الأدب 197/10.

⁽⁵⁶⁾ ينظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك 745/2 , والتنزيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل 256/11.

⁽⁵⁷⁾ ديوانه 78 .

⁽⁵⁸⁾ ينظر: علل النحو 419.